


# نشأة علم النحو
# والعوامل المؤثرة فيه

Basra Grammar School
its emergence - its notables - its curriculum
Its impact on the schools that came after it

**مصطفى كمال الزايد**
Mustafa Kamal Alzaied
Alzayd7@gmail.com
رقم ORCID الخاص بكل باحث
https://orcid.org/0009-0009-7937-1683

بإشراف : د. أيمن عباشي محمود زغيب

**جامعة الزيتونة الدولية**
**Zaytoonah International University**
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
ماجستير لغة عربية
١٤٤٤-١٤٤٥هـ / ٢٠٢٣-٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

**عنوان البحث:** نشأة علم النحو والعوامل المؤثرة فيه.

**الكلمات المفتاحية:**

علم النحو، نشأة النحو، العوامل المؤثرة في علم النحو.

**Keywords:**

**مشكلة البحث:**

كيف نشأ علم النحو، وأسباب نشأته، ودواعي الاهتمام به، ومن هم مؤسسوه، وتاريخ نشأة مدارسه، ومدى الحاجة إلى قيام تلك المدارس في وقتها، والظروف التي دفعت إلى إنشائها، والأعلام الذين نهضوا بها، ومناهجهم في أخذ اللغة واستنباط قواعدها وأصولها، ومصادرها اللغوية، والشروط التي وضعوها لمصادرهم، ونتاج أعلامها، وتميز منهجهم عن غيرهم من المدارس، وأثر تلك المدارس في المناهج اللغوية عموماً، والنحو خاصة.

**أهداف البحث:**

١- التعرف على البيئة اللغوية العربية قبل نشأة علم النحو.

٢- استعراض الظروف التاريخية والاجتماعية التي أدت إلى نشأة علم النحو.

٣- مراحل تطور النحو:

أ- المرحلة الأولى: مرحلة النشأة والتكوين: طبقة النحاة الأوائل؛ أبو الأسود وتلاميذه.

ب- المرحلة الثانية: مرحلة النمو والتطور: طبقة الخليل الفراهيدي البصرية.

ج- المرحلة الثالثة: مرحلة النضج والاكتمال: طبقة سيبويه والأخفش الأوسط والمبرد «البصرية»، والكسائي وثعلب «الكوفية».

٤- تأسيس المدارس النحوية، وأسماء مؤسسيها.

٥- مناهج المدارس النحوية ومصادرها.

٦- الشروط التي أوجب النحويون توافرها في المصادر التي يأخذون عنها اللغة.

٧- أعلام المدارس النحوية الذين نهضوا بها ورسخوا علومها.

٨- الفروق بين أكبر مدرستين؛ البصرية والكوفية.

٨- أثر المدرسة البصرية في المدارس التي نشأت بعدها، في اللغة عموماً، وفي النحو خاصة.

**دراسات سابقة:**

١- مرتكزات الاجتهاد النحوي في المدرسة البصرية – دراسة وصفية تحليلية، إيمان علي البلوي، المجلة العلمية، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، العدد السادس والثلاثون، الإصدار الأول، شباط (فبراير) ٢٠٢٣م – ١٤٤٤هـ.

اعتمدت الباحثة مرتكزات المدرسة البصرية، من خلال توضيح المكانة العلمية لمدرسة البصرة النحوية، وذكر مراحل البناء النحوي فيها، وبيان ملامح منهجها، وذكر أصول الاحتجاج النحوي عندها، وذلك بدراسة: مراحل الفكر النحوي في المدرسة البصرية، وملامح منهجها، والاحتجاج النحوي عند أتباعها، واتبعت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي، للخلوص إلى نتائج، أهمها: أن المدرسة البصرية عريقة في الفكر النحوي، إذ أصلت هذا العلم.

٢- الاختلافات النحوية بين البصريين والكوفيين في مسألة عوامل النصب في الفعل (دراسة محتوى في كتاب الإنصاف، عبد الرحمن، بحث مقدم لتكملة شرط من الشروط اللازمة للحصول على الدرجة الجامعية الأولى في قسم اللغة العربية بكلية التربية بجامعة شريف هداية الله، الإسلامية الحكومية، جاكرتا، إندونسيسا، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

سعى الباحث إلى الكشف عن الاختلافات النحوية بين المدرستين، في عوامل النصب في الفعل المضارع، وآراء البصريين والكوفيين، وترجيح الاستدلال فيها، متبعاً المنهج الوصفي بطريقة المقارنة والترجيح، واستنتج أن كل المسائل الخلافية بين البصريين والكوفيين في هذا الباب إعمال «أن» المصدرية محذوفة من غير بدل، وإظهارها بعد «كي» و«حتى»، وناصب المضارع بعد لام التعليل، وبعد لام الجحود، وتقديم معمول منصوبها، وناصب المضارع بعد «حتى»، ورجح ما ذهب إليه البصريون لأن احتجاجهم أصح قياساً من غيرهم.

٣- المصطلحات النحوية بين البصريين والكوفيين، سعيدة عبد الرحيموفا، جامعة محمود قشغاري - برسقاني الشرقية، قرغيستان، من دون تاريخ.

تتناول البحث اختلاف المصطلح النحوي بين المدرستين؛ البصرية والكوفية، ووصلت الباحثة إلى أن الخلاف بين المدرستين أصله استخدام المصطلح النحوي، واستدلت على ذلك بمؤلفات أقطاب المدرستين، إذ كان التعبير عن الموضوعات النحوية متغايراً بينهم، وقد ارتبط اختيار المصطلح بالأسلوب الذي اتبعه أصحاب كل من المدرستين في السماع والقياس اللغويين، لكونهما الأداة التي من خلالها كان استقراء لغة العرب وتقنينها؛ بغية الحفاظ على النص القرآني، ونزاهته من لحن القول، إلا أن المصطلح البصري هو الذي ذاع صيته واشتهر بين النحاة حتى عصرنا.

٤- أثر المدرسة الأندلسية في النحو الأندلسي، منى أحمد الحسين كرار، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية، كلية اللغة العربية، كلية الدراسات العليا، جامعة أم درمان الإسلامية.

ذكرت الباحثة أن الأندلسيين وصلت إليهم علوم العربية من كتب المشرق، فأخذوا منها حاجتهم، واستدركوا على المشارقة ما فاتهم من قواعد النحو، واستحدثوا لأنفسهم اتجاهاً خاصاً عرف بالنحو الأندلسي، فدرست كتب نحوهم ونقبت عن آرائهم، ودرست مسائلهم، لتثبت حقيقة النحو الأندلسي، مفرقة بين المدرسة النحوية والدرس النحوي والمذهب النحوي، وتوضيح أثر المدرسة البصرية في النحو الأندلسي، الذي لمسته من خلال إعجابهم وتأثرهم بالمدرسة البصرية، مستخدمة المنهج الوصفي الذي يقوم على التحليل والتفسير.

٥- المصطلحات النحوية المتناظرة بين البصريين والكوفيين عند الدارسين المحدثين، أحمد خليل حبيب زنكنه، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية التربية الأساسية، جامعة ديالى، العراق.

تناول البحث المصطلحات النحوية المتناظرة بين البصريين والكوفيين، التي اختلفت من جهة المصطلح، واتفقت من جهة المفهوم، وبَذْلَ الباحثين الجهود في دراسة هذه المصطلحات تأصيلاً وتوثيقاً، مبرزين أهميتها، إذ تُبنى على هذه المصطلحات أحكام ومسائل نحوية ينتفع بها الدارسون، وخلص إلى أن هناك مشكلة حقيقية في تناول المصطلحات، وأثر السياق في تحديد المعنى، ما دعا الكوفيين أحياناً إلى وضع عدد من المصطلحات للمسمى الواحد، كالبدل، وهي «الترجمة، والتبيين، والتكرير، والمردود»، وأن البصريين يعتمدون على الحكم الإعرابي، في حين يعتمد الكوفيون على الحكم المعنوي، كما في مصطلح البدل.

٦- إن وأخواتها بين مدرستي البصرة والكوفة، سامية بوعلول، وكاهنة نينوح، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الليسانس في اللغة والأدب العربي، قسم اللغة والأدب العربي، معهد الآداب، جامعة أكلي محند أولحاج، البويرة، الجزائر، ٢٠١١ – ٢٠١٢م.

تحدثت الباحثتان عن ظهور عدد من المدارس اللغوية، من بينها مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، ونشأة الخلاف بينهما في عدد من المسائل، ومنها «إن وأخواتها»، وإلى أي مدى وصلت حدة الخلاف بينهما، مستخدمتين المنهج التقابلي والمقارن، وخلصتا إلى أن منهج البصرة هو الذي قعد النحو، وهو الذي يحظى بالقبول والاهتمام عند الغالبية إلى يومنا هذا، وأن الكوفة حاولت إقامة مدرسة نحوية على نمط خاص يخالف ما عليه مدرسة البصرة، ويخصها بخصائص تميزها عنها، كي تكون لها شخصيتها المميزة وسماتها التي لا يشاركها فيها أحد، وذلك بالمخالفة الصريحة المطردة.

## مقدمة

الحمد لله الذي جعلنا من أمةٍ اختارها لحمل كتابه، وخصها بخطابه، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[1]، أمةٍ نبيها أفصح الناس وأعلمهم بلغة العرب، أوتي جوامع الكلم وحسن البيان، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين، ورضي الله عن العلماء الذين أورثهم العلم والكتاب، فأوصلوهما إلينا كابراً عن كابر، وألهمهم استنباط الأحكام اللغوية لفهم دقائق الكتاب، وتقويم اللسان في دقائق الإعراب، فأقاموا حلقات العلم في المساجد يعلمون الناس النحو والصرف، والفقه والتفسير اللذين لا غنى لهما عن الأولين، فاجتمع لتلامذتهم العلم والأدب، والقدرة على استنباط الأحكام وتحليل العبارات، فنشأت بهم مدارس نهض بها تلامذتهم ومن جاء بعدهم، فتوسعت علومها فأسست لكل العلوم الأخرى، فكانت البداية من النحو، وانتهت إلى ما نشهد اليوم من فنون وعلوم شتى في جوانب اللغة والأدب والبلاغة والبيان، وتعددت المدارس التي بدأت بالبصرية، ليتبعها نشأة سلسلة من المدارس، فكانت الكوفية، والبغدادية، والشامية، والمصرية، والأندلسية، أخذ بعضها عن بعض، ووافق بعضها مع بعض في أشياء، واختلف في أشياء، فكانت هناك مناظرات أذكت هذه العلوم، ونشأ بها فن المناظرات، وصحة الاحتجاج، وحسن استنباط الأدلة، فنما النشاط الفكري وتنوع لينال جميع العلوم النقلية والعقلية، وجاء بعد ذلك علماء درسوا حجج السابقين، وأصّلوا أدلتهم،

---

[1] سورة الزخرف: ٤٤.

فنشأ بذلك منهج الترجيح في المسائل الخلافية، وفي هذا البحث سأدرس اللبنة الأصل والمدرسة الأولى، وهي مدرسة البصرة، بتاريخها وأعلامها، ومصادرهم، ومنهجهم، وآرائهم، واستشهاداتهم، وطرق استدلالهم، وأثر تلك المدرسة في المدارس التي جاءت بعدها، سائلاً الله عز وجل السداد والرشاد والتوفيق ولزوم الصواب، إنه هو العليم الحكيم، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

**التعرف على البيئة اللغوية العربية قبل نشأة علم النحو:**

نشأ العربي في باديته يجتني من مجتمعه معارفه، من لغة تواصل وتعامل، وشعر وحكم وأمثال، وقصص حب وحرب، كلها بلغة عربية فصحى، لا يتخللها خطأ ولا تنزلق ألسنتهم بلحن، هكذا توارثت أجيالهم اللغة، بألسنة مستقيمة وسلائق تجري جري النهر، لا يعرفون عللاً لرفع أو نصب أو جر، أو اشتقاق صرفي، لكنها تجري على ألسنتهم بميزان أدق من ميزان الذهب، فيقدمون ويؤخرون محافظين على حركات أواخر الكلمات بصورة عجيبة، دون أن يختل ذلك الميزان، ويميزون الفروق الدلالية بين المترادفات، وينتقون ألفاظهم من بينها بدقة متناهية وفنية مدهشة، فعندهم لكل مقام مقال، حتى أسموا غيرهم من الأقوام بالأعاجم، والأعجمي هو الذي لا يُبين، مع أن لكل قوم لغتهم التي يحسنون التحدث بها، لكن ربما كان هذا الوصف قديماً جداً توارثوه، دون أن يعلموا من أطلقه على غير أهل هذه اللغة، ولا ريب أن مطلقه لم يطلقه جزافاً، وإنما أطلقه على علم ليشمل به كل من يتكلم غير لغة البيان الذي تتسق ألفاظه مثل معادلة رياضية؛ مقدماتها تقود إلى نتائجها بحساب دقيق يجري سريعاً في ذهن المتكلم، سليماً صحيحاً فصيحاً غير قابل للخطأ، «قال الأصمعي: كنت في البادية، فجلست أسترجع القرآن، وكان أعرابي قريباً مني يسمع، فلما قرأت: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غفور رحيم»، قال لي الأعرابي: يا أصمعي، كلام من هذا؟ فقلت كلام الله. فقال: أعِد. فأعدت، فقال: ما هكذا يكون كلام الله! فرجعت إلى القرآن فوجدت الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾،[٢] فقال: أصبت، هذا كلام الله. فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. فقلت: فمن أين علمت؟ فقال: يا هذا، عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع».[٣] هكذا ورثوا اللغة وتعاملوا بها في كل وجوه حياتهم، في معاملاتهم، وفي جدهم ولهوهم، وفي بيوتهم ومؤتمراتهم، وفي يقظتهم ومناماتهم، وكما لم يعرفوا أسرار قواعدها التي يستخدمونها بدقة عالية ووعي تام، دون دراسة أو تعليل، فإنهم لم يعرفوا واضعها، ولم يخطر في بال أحدهم أن يتساءل: كيف نشأت؟ أو كيف تأتّى لشعب يملأ الصحراء والحواضر أن يتفقوا على هذا النمط من الكلام، ولا نعني هنا الألفاظ؛ فالألفاظ موجودة عند كل الشعوب، وإنما نعني سياق الكلام بكل قواعد النحو والصرف والدلالة والبيان، والمحافظة على الحركات مع كل تقديم أو تأخير أو حذف، والأعجب أن السامع يدرك المحذوف من السياق، كما في الاختصاص والمدح والذم والاسترحام، هذا غير فَهْم الكنايات الدارج في أساليب كلامهم! نعم هي لغة مدهشة بكل تفاصيلها، استخدموها بجمال أسلوبها وجلالة تعابيرها ورونق

---

[٢] سورة المائدة: ٣٨.

[٣] كتاب الكشكول، البهاء العاملي، ج٢، ص١١٢.

بيانها دون أن يحدّث أحدهم نفسه بسؤال مما طرحنا. وهذا ديدن صغيرهم وكبيرهم، فإذا لحن أمامهم أحد لم يفهموا كلامه.

فلما بعث الله نبيه محمداً ﷺ برسالة الإسلام، وأنزل عليه كلامه وحياً بهذه اللغة ـ أو الأفصح أن نقول: بهذا اللسان ـ بأعلى مستويات بيانها الذي مدحه سبحانه بقوله: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾،(٤) وبقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾(٥) فأدهشهم حسن بيانه مع أنه لسانهم، إلّا أنه كان دقيقاً في ألفاظه وسياقه ونظمه ودلالاته، معجزاً لقدرة فصحائهم وأمراء بيانهم، وازداد الأمر إدهاشاً حين نزل بالتحدي ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾(٦)، نعم من مثله؛ كسورة الكوثر مثلاً، وهي عشر كلمات مصاغة بأسلوب ﴿لَا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾،(٧) فأبدوا عجزهم، وهم يريدون أن يهزموا هذا التحدي الذي نال من أعلى معارفهم ومبلغ علمهم، وهم الذين يجتمع إليهم الشعراء في سوق عكاظ ليعرضوا عليهم حسن بيانهم وإبداعهم اللغوي، فتحيروا، فجاءهم التحدي الأكبر، إذ كانوا ينسبون كل إبداع تعبيري إلى وادي عبقر، الذي زعموا أن الجن تسكنه، وأن لكل شاعر منهم رئي أو شيطان يملي عليه هذا الإبداع، وكان لهم في ذلك قصص يتداولونها، حتى وسموا كل إبداع بأنه «عبقري»، فكان التحدي هذه المرة أكبر، فقد جاء خبرياً، وليس إنشائياً كما في التحدي الأول الذي طالبهم بمجاراته، أما هذه المرة فقد تحداهم مخبراً بعجزهم يقيناً، في إشارة تستفز قواهم النفسية والعقلية والمعرفية، إذ لم يكونوا وحدهم المشمولين بالتحدي، ولا سكان عبقر، بل كل الكائنات العاقلة في مشارق الأرض ومغاربها ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٨)، ومع كل العناد والعداوة لم يستطيعوا قبول هذا التحدي ولو بالمحاولة، فضلاً على دحضه، مع كل ما أوتوا من الفصاحة والبيان! وبقي التحدي قائماً، وجاء مسيلمة الذي كان كاهناً في الجاهلية، وكانت له علاقة بالجن، مثله في ذلك مثل كل الكهان، فادعى النبوة وحاول أن يصوغ كلاماً يشبهه، لكن كل من سمعه، حتى من أتباعه، لم يجدوا في كلامه ما يرقى إلى المقارنة بالقرآن، فضلاً على محاكاته. ومحاولته هذه كانت نقضاً لنظرية الصرفة.(٩)

**الظروف التاريخية والاجتماعية التي أدت إلى نشأة علم النحو:**

امتاز أعراب البادية بسلامة السليقة وفصاحة اللسان، حتى إنهم لا يفهمون الكلام الملحون على الوجه الذي يريد المتكلم، «ذكر الكسائي أنه قال لغلام بالبادية: من خلقْكَ؟ وجزم القاف، فلم يدر الغلام معنى قوله ولم يجبه، فأعاد عليه، فقال الغلام: لعلك تريد «من خلقَك»؟! أما إذا كان لِكَلامِ مَنْ لَحَنَ توجيه آخر، فعند ذلك يجيبونه بناء على ذلك التوجيه؛ قال رجل لأعرابي: كيف أهلِك؟ فقال الأعرابي:

---

٤ سورة الزمر: ٢٨.

٥ سورة الشعراء: ١٩٥.

٦ سورة البقرة: ٢٣.

٧ سورة فصلت: ٤٢.

٨ سورة الإسراء: ٨٨.

٩ «الصرفة» نظرية قال بها المعتزلة، ومفادها أن العرب لو حاولوا أن يأتوا بمثل القرآن لأتوا، ولكن الله صرفهم عن ذلك فأعجزهم، لكن محاولة مسيلمة فندت نظريتهم.

صلباً! فأجابه على فهمه».[10] أما أهل الحواضر فربما يقع منهم اللحن، «وكان شيوع الخطأ في إعراب الكلمات العربية أوَّلَ اختلال طرأ على لغة الضاد، كما أورده أبو الطيب اللغوي في كتابه: مراتب النحويين، في قوله: «واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعراب، لأن اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعربين من بعد النبي ﷺ، فقد روينا أن رجلاً لحن بحضرته عليه الصلاة والسلام، فقال ﷺ: ﴿أرشدوا أخاكم فقد ضل﴾».[11] وبعد نزول القرآن الكريم أصبحت صيانة اللسان من اللحن مسألة دينية، لارتباط الفصاحة بفهم القرآن الكريم وأحكامه، ومن ذلك أن «أعرابياً صلى خلف إمام، فقرأ الإمام: ﴿ولا وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾[12] قرأها بفتح تاء (تنكحوا) فقال: وي! حرمه وهم كفار، فكيف بعد إسلامهم؟ فيل له: إنه يلحن، والآية ﴿وَلَا تُنكِحُوا﴾. فقال: أخّروه – قبحه الله – ولا تجعلوه إماماً فإنه يحل ما حرم الله»![13] قال ابن قتيبة: وسمع أعرابي مؤذّناً يقول: أشهد أن محمداً رسولَ الله. فقال له: ويحك! ماذا يفعل»[14] لأنه حين نصب «رسول» صارت صفة، فكان الأعرابي ينتظر خبر «أن». ولذلك حرص كبار الصحابة على تقويم اللسان وصيانته من اللحن، قال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: لأن أقرأ فأسقط أحب إليَّ من أن أقرأ فألحن. ومر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه بقوم يسيئون الرمي، فقرَّعهم، فقالوا: نحن قوم متعلمين! فأعرض مغضباً، وقال: والله لخطؤكم في لسانكم أشد علي من خطئكم في رميكم».[15]
و«ذكر ابن الأنباري، في: نزهة الألباء: قدم أعرابي المدينة في زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: من يقرئني مما أنزل الله على محمد ﷺ، فأقرأه رجل سورة التوبة (براءة)، فقرأ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ﴾[16] فقرأها بجر «رسولِهِ»! فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه. فبلغ عمر مقالة الأعرابي، فدعاه فقال له: ليس هكذا يا أعرابي، وقرأها عليه بالرفع. فقال الأعرابي: أنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم، فأمر رضي الله عنه أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة العربية.[17]

وانتشر الإسلام، ودخل فيه الأعاجم من فرس وروم وغيرهم، فكان لزاماً عليهم أن يتعلموا لغة القرآن الكريم، فتعلموا الألفاظ، لكن الأساليب ثقلت عليهم، فكان اللحن يجري على ألسنتهم حتى في تلاوة القرآن، لأنهم لم ينشؤوا على هذا اللسان، وبتغلغلهم في المجتمع العربي بدأ لحنهم يتسلل إلى ألسنة المولدين، فاستشعر سيدنا علي بن أبي طالب، عليه السلام، (ت ٤٠هـ) خطورة هذا الأمر، وخشي أن يصل اللحن إلى القرآن الكريم، فأشار على العالم اللغوي أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) أن يبحث عن حل، فألهمه الله وضع شكل على أواخر الكلمات تضبط رفعها ونصبها وجرها وسكونها، لكن

---

[10] مدرسة البصرة النحوية: نشأتها وتطورها، عبد الرحمن السيد، ص٢ – ٣.
[11] الدلالة النحوية لقراء البصرة، أحمد بابكر حسن محمد، ص١٢.
[12] سورة البقرة: ٢٢١.
[13] العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، ج٤، ص٦٥.
[14] نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد الطنطاوي، ص١٧.
[15] نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد الطنطاوي، ص١٦.
[16] سورة التوبة: ٣.
[17] تلحين النحويين للقراء، ياسين جاسم المحيميد، ص١٠.

اللحن في الكلام ازداد اتساعاً وغزا بيوت العرب الخلص، حتى وصل إلى بيت أبي الأسود الدؤلي، إذ يروى أنه كان يقف مع ابنته في ليلة صافية، «فنظرت إلى السماء وقالت له: ما أحسنُ السماء؟ فقال لها: نجومها. فقالت: إني لم أرد هذا، وإنما تعجبت من حسنها. فقال لها: إذن فقولي ما أحسنَ السماء»![١٨]

**مراحل تطور النحو:**

**أ- المرحلة الأولى:** مرحلة النشأة والتكوين: طبقة النحاة الأوائل؛ أبو الأسود وتلاميذه:

«زعم قوم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وزعم آخرون أن أول من وضع النحو نصر بن عاصم، فأما من زعم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز أو نصر بن عاصم فليس بصحيح، والصحيح أن أول من وضع النحو علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، لأن الروايات كلها تسند إلى أبي الأسود، وأبو الأسود يسند إلى علي، فإنه روي عن أبي الأسود أنه سئل: من أين لك هذا النحو؟ فقال: لفقت حدوده من علي بن أبي طالب».[١٩]

جاء «فى نزهة الألباء: «أول من وضع علم العربية، وأسس قواعده وحدد حدوده أمير المؤمنين على بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأخذ عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي. وفيه: وسبب وضع علي، رضي الله، عنه لهذا العلم ما روى أبو الأسود، قال: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء - يعنى الأعاجم - فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه، ويعتمدون عليه، ثم ألقى إليَّ الرقعة، وفيها مكتوب: الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أُنبِئَ به، والحرف ما جاء لمعنى. وقال لي: أُنْحُ هذا «النَّحوَ»، وأضف إليه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنما تتفاضل الناس يا أبا الأسود في ما ليس بظاهر ولا مضمر، وأراد بذلك الاسم المبهم. قال أبو الأسود: فكان أول ما وقع لي «إن وأخواتها»، ما خلا «لكنّ»، فلما عرضتها على علي، رضي الله عنه، قال لي: وأين «لكنّ»؟ فقلت: ما حسبتها منها، فقال: هي منها، فألحقتها، ثم قال: ما أحسن هذا «النحو» الذي نحوت، فلذلك سمي النحو «نحواً».[٢٠] ومن هنا بدأ وضع أولى قواعد النحو، فكانت أول مدرسة لغوية أسسها الإمام علي، وأقام بناءها أبو الأسود الدؤلي، فاستنبط الأفعال وأزمنتها، وفاعلها ومفعولها، والمبتدأ والخبر، وهي أصول تركيب الجملة العربية. وتلمذ لأبي الأسود نصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز، ويحيى بن يعمر، وبذلك يعدون هم وأستاذهم أبا الأسود من وضعوا اللبنات الأولى في علم النّحو.

**ب- المرحلة الثانية:** مرحلة النمو والتطور: طبقة الخليل بن أحمد الفراهيدي البصرية:

بعد ظهور اللحن في الناس، أصبحوا لا يتحرجون من السؤال عن الصواب في النحو واستمرت مدارسة النحو سائرة على هذا النمط؛ يسألون أهل المعرفة باللغة ويقفون عند اختلاف القراءات، فينكر بعضهم ما ينكَر فيسأل القراء عن صوابه أو خطئه، «حتى جاء عبد الله بن أبي إسحق

---

١٨ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد الطنطاوي، ص٢٤.

١٩ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد الطنطاوي، ص٢٤.

٢٠ مدرسة البصرة النحوية: نشأتها وتطورها، عبد الرحمن السيد، ص٤٤.

الحضرمي البصري (٢٩ - ١١٧هـ)، الذي كان شديد التجريد للقياس والعلل، ثم نهض بهذه المدرسة علماء هم تلاميذه الذين كان منهم يونس بن حبيب البصري (٩٤ - ١٨٢هـ) وعيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (٧٠ هـ - ١٥٤هـ)، والخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٠/١٧٣ هـ)، الذي كان فلتة من فلتات الزمان، وكان مقيماً بالبصرة فقيراً ندب نفسه لهذه اللغة، وكانت له حلقة في المسجد يحاضر فيها مشافهة، وتلاميذه يكتبون عنه. وهؤلاء تبحروا في اللغة، وخرجوا إلى البادية وأخذوا اللغة عن العرب الأقحاح، وراحوا يستنبطون القواعد من أساليب القرآن الكريم ولغة العرب، ويطلقون المصطلحات، وبرز من هؤلاء علماء كثير، وبذلك نرى أنهم مؤسسو المدرسة البصرية.

**ج- المرحلة الثالثة:** مرحلة النضج والاكتمال: طبقة سيبويه والأخفش الأوسط والمبرد «البصرية»، والكسائي وثعلب «الكوفية»: كان سيبويه وقتها يطلب علم الحديث الشريف، «فلزم المحدث حماد بن سلمة يأخذ عنه رواية حديث النبي ﷺ، فأملى عليه شيخه يوماً حديث النبي ﷺ: ﴿ليس من أصحابي إلا من لو شئتُ لأخذتُ عليه ليس أبا الدرداء﴾. فقال سيبويه، مصححاً لشيخه: ليس أبو الدرداء! فقال حماد: لحنت يا سيبويه، فهذه ليس الاستثناء وليست الناسخة! فوضع سيبويه القصبة من يده وقال: لأطلبن علماً لا يلحنني به أحد، ففارق شيخه ولزم الخليل بن أحمد الفراهيدي وغيره[٢١]، حتى صار عَلَم النحو وإمامَه، ومن محاضرات شيخه الخليل ألف أول كتاب في النحو، أسماه «الكتاب»، الذي يعد المرجع الأول لكل علماء النحو من بعده، ومع سيبويه تلمذ للفراهيدي عدد من الطلاب الذين صاروا في ما بعد من أعلم أهل زمانهم، وهم النضر بن شميل، وعلي بن نصر الجهضمي، ومؤرّج السدوسي، فكان سيبويه أبرعهم في النحو، في حين شغف النضر باللغة، واهتم مؤرج بالشعر، أما علي فقد اهتم بالحديث، «وكان الخليل يفسح لسيبويه صدره، ويرى فيه الطالب الذي لا يضن عليه، وازدادت مكانته في قلبه حتى صار أحب تلاميذه إليه، وكان الخليل إذا أتاه تلميذه سيبويه قال له: مرحباً بزائر لا يُملّ. وما سُمع الخليل يقولها إلا لسيبويه»![٢٢] «وعلى نحو ما تسيل علل الخليل وتعليلاته، في كتاب سيبويه، تسيل أقيسته، ولا نغلو إذا قلنا: إنها كانت أهم مادة شاد بها بناء النحو الوطيد»[٢٣]، ومن أتباع هذه المدرسة: الأخفش الأوسط وهو تلميذُ سيبويه ومن كتبه «المسائل الكبير»، ومنهم المبرد، والزجّاج، والسيرافي، وقطرب صاحب المثلثات، وغيرهم.

**٤- تأسيس المدارس النحوية، وأسماء مؤسسيها.**

*** تأسيس المدرسة البصرية:** وبسيبويه وكِتابه وتلاميذه، من بعد الخليل، نهضت المدرسة البصرية وكان هو إمامَها، حتى إنه حين ناظره الكسائي، إمام مدرسة الكوفة، في المسألة الزنبورية واختلفا، قيل لهما: فمن يحكم بينكما وأنتما إماما بلديكما؟ فكان ذلك إقراراً لسيبويه بإمامة المدرسة البصرية، وللكسائي بإمامة المدرسة الكوفية.

**منهج المدرسة البصرية ومصادرها:**

---

٢١ مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، ج١، ص٣٢٣ – ٣٢٤.

٢٢ مدرستا البصرة والكوفة في النحو، من المعيار إلى الوصف، سمية سدايرية، وهدى رميدي، ص١٢ – ١٣.

٢٣ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٥١.

رأى البصريون، وهم أوائل النحاة، أن على عاتقهم أمانةً عظيمة، وهي استقراء اللغة العربية الفصحى بنقائها التام وسلامتها الكاملة، واستنباط قواعدها، وأنها مهمة دينية واجتماعية وتاريخية هم المسؤولون عنها، فتشددوا في رواية الأشعار والأمثال والخطب، ووضعوا شروطاً دقيقة في الشواهد التي يعتمدونها في وضع القواعد، فأخذوا اللغة من العرب الأقحاح من البوادي والقبائل التي لم تفسد سليقتها، واشترطوا في من يأخذون عنهم: في العربي الفصاحة والبداوة وسلامة اللغة، وفي الراوي: الثقة والدقة والضبط، وفي المنقول: الاطراد مع القواعد، فإن خالف القواعد والقياس فهو شاذٌّ، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه.

قال السيوطي: «أدلة النحو أربعة، قال ابن جني في الخصائص: أدلة النحو ثلاثة: السماع، والإجماع، والقياس. وزاد ابن الأنباري: واستصحاب حال. وقد عقدتُ لها أربعة كتب، وكل من القياس والإجماع لا بد له من السماع».[٢٤] ويسمى السماع أيضاً «النقل»، ويبين السيوطي معنى «السماع، فيقول: «ويراد به مأثور القول من العرب شعراً ونثراً، وما سمع من الذكر الحكيم من اختلاف في بعض القراءات».[٢٥] وقال في الكتاب الأول: «السماع: وأعني به ما ثبت من كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى، وهو القرآن الكريم، وكلام نبيه ﷺ، وكلام العرب، قبل بعثته ﷺ، وفي زمنه، وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين، نظماً ونثراً، عن مسلم أو كافر».[٢٦] فكانت مصادرهم:

١- القرآن الكريم: هو أول عناصر السماع، كما بين الإمام السيوطي، وهو الكتاب الذي أوحاه الله عز وجل عز وجل إلى نبيه محمد ﷺ، وتعهد بحفظه، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكل حرف فيه وكل أسلوب وكل استخدام للفظ في معنى حقيقي أو مجازي هو حجة، لأنه من لدن حكيم خبير. فقد «كان القرآن الكريم وقراءاته مدداً لا ينضب لقواعدهم، وتوقف نفر منهم إزاء أحرف قليلة في القراءات لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وجدوها لا تطرد مع قواعدهم، بينما تطرد معها قراءات أخرى آثروها، وتوسع في وصف ذلك بعض المعاصرين، فقالوا: إنهم كانوا يردون بعض القراءات ويضعفونها، كأن ذلك كان ظاهرة عامة عند نحاة البصرة، مع أنه لا يوجد في كتاب سيبويه نصوص صريحة مختلفة تشهد لهذه التهمة الكبيرة. وسنرى الأخفش الأوسط يسبق الكوفيين المتأخرين إلى التمسك بشواذ القراءات والاستدلال عليها من كلام العرب وأشعارهم. وفي الحق، إن بصريي القرن الثالث هم الذين طعنوا في بعض القراءات، وهي أمثلة قليلة لا يصح أن تتخذ منها ظاهرة ولا خاصة ولا عامة، وقد كانوا يصفونها بالشذوذ ويؤولونها ما وجدوا إلى التأويل سبيلاً».[٢٧] فاعتمده البصريون ومن بعدهم الكوفيون وغيرهم مصدراً أول للغة العربية وقواعدها، على اختلاف القراءات، وما شذ منها عن المتعارف عليه أعملوا الفكر فيه ووجدوا له تخريجات مناسبة، «وكان سيبويه يقول: القراءة لا تخالَف لأنها السنة؛ ولذلك قلما يذكر القراءة التي تخالف القياس، بل عادة لا يعرض لها، ومما وقف عنده الآية الكريمة: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢٨] وكان ابن عامر

[٢٤] الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص١٤.
[٢٥] الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص١٧.
[٢٦] الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص٧٤.
[٢٧] المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص١٩ -٢٠.
[٢٨] سورة غافر: ٦٨.

يقرأ «يكونَ» بالنصب، وهو بذلك يخالف القياس؛ لأن المضارع لا ينصب بعد الفاء مع الأمر، على نحو ما يقرر ذلك سيبويه، إلا إذا كان جواباً له، ولم يرد الله - في رأيه - أنه يقول للشيء كن فيكون، وإنما أراد أنه يقول للشيء كن فحسب، ثم أخبر أنه يكون، ومعنى ذلك أن قوله: «فيكون» كلاماً مستقلاً لا مترتباً على الأمر. ومن هنا نرى سيبويه يذكر في الآية قراءة الجمهور بالرفع، ولا يعرض لقراءة ابن عامر. ومن ذلك أن نراه لا يعرض لقراءة حمزة: ﴿تَسَاءَلُوْنَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ﴾ بخفض الأرحام وعطفها على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض مع أنه يقرر أنه لا يصح أن يقال: مررت بك وزيد، بل لا بد من أن يقال: مررت بك وبزيد، أي: إنه لا بد في العطف على الضمير المجرور من إعادة حرف الجر»[29] واختلفوا في القياس عليه، ومن ذلك جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار في قراءة حمزة المذكورة، فسيبويه قَبِلَ القراءة، لكنه في قواعده اشترط في العطف على الضمير المجرور إعادة حرف الجر. يقول السيوطي: «فإن قُلْتَ: فقد روي عن عثمان أنه قال، لما عرضت عليه المصاحف: إن فيه لحناً ستقيمه العرب بألسنتها. وعن عروة (بن الزبير) قال: سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله: ﴿إِنْ هَذانِ لَسَاحِرَانِ﴾[30] وعن قوله: ﴿وَالْمُقِيْمِيْنَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ﴾[31] وعن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَالَّذِيْنَ هَادُوْا وَالصَّابِئُوْنَ﴾[32] فقالت: يا بن أختي، هذا عمل الكُتّاب؛ أخطؤوا في الكتاب. (أخرج الأثرين أبو عبيد في فضائل القرآن) قلتُ (السيوطي): معاذَ الله! كيف يُظن أولاً بالصحابة أنهم يلحنون في الكلام، فضلاً عن القرآن، وهم الفصحاء اللُّدُّ؟! كيف يُظن بهم ثانياً في القرآن، الذي تلقَّوه من النبي ﷺ كما أنزل، وضبطوه، وحفظوه، وأتقنوه؟! ثم كيف يظن بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته؟! ثم كيف يظن بهم رابعاً عدم تنبههم ورجوعهم عنه؟! ثم كيف يمكن لعثمان أن يقرأه ولا يغيره؟! ثم كيف يظن أن القراءات استمرت على مقتضى ذلك الخطأ، وهو مروي بالتواتر خلفاً عن سلف؟! هذا مما يستحيل عقلاً وشرعاً وعادةً، وقد أجاب العلماء على ذلك بأجوبة عديدة، بسطتها في كتابي: الإتقان في علوم القرآن».[33]

٢- الحديث النبوي الشريف: وقد ضيّق البصريون الاحتجاج بالحديث الشريف، «وكانوا لا يحتجون بالحديث النبوي ولا يتخذونه إماماً لشواهدهم وأمثلتهم؛ لأنه روي بالمعنى، إذ لم يُكتب ولم يدون إلا في المئة الثانية للهجرة، ودخلت في روايته كثرة من الأعاجم، فكان طبيعياً ألّا يحتجوا بلفظه وما يجري فيه من إعراب».[34] وقد ضيق البصريون الاستدلال به، لأن كثيراً منه روي بالمعنى: «وأما كلامه ﷺ فيستدل منه بما ثبت أنه قاله على اللفظ المروي، وذلك نادر جداً، إنما يوجد في الأحاديث القصار على قلة أيضاً، فإن غالب الأحاديث روي بالمعنى، وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها، فرووها بما أدت عباراتهم فزادوا ونقصوا، وقدّموا وأخروا، وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ، ولهذا ترى الحديث الواحد مروياً على أوجه شتى بعبارات مختلفة، ومن ثَمَّ أُنكر على ابن مالك إثباته

---

٢٩ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٨٠ – ٨١.
٣٠ سورة طه: ٦٣.
٣١ سورة النساء: ٦٢.
٣٢ سورة المائدة: ٦٩.
٣٣ الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ٨٢ – ٨٦.
٣٤ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٢٠.

القواعد النحوية بالألفاظ الواردة في الحديث (الشريف)... على أن الواضعين الأولين لعلم النحو، المستقرئين للأحكام من لسان العرب، كأبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، والخليل ، وسيبويه، لم يفعلوا ذلك... وقد جرى الكلام في ذلك مع بعض المتأخرين من الأذكياء، فقال: إنما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ﷺ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن في إثبات القواعد الكلية، وإنما كان ذلك لأمرين: أحدهما: أن الرواة جوّزوا النقل بالمعنى، فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه ﷺ لم تُقَل بتلك الألفاظ جميعها، نحو ما روي من قوله ﷺ: ﴿زوَّجتُكَها بما معك من القرآن﴾، ﴿مَلّكْتُكَها بما معك من القرآن﴾، ﴿خُذها بما معك من القرآن﴾ وغير ذلك من الألفاظ الواردة في هذه القصة، فنعلم يقيناً أنه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ، بل لا نجزم بأنه قال بعضها، إذ يُحتمل أنه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ غيرها فأتت الرواة بالمرادف... وقال سفيان الثوري: إن قلت لكم: إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني، إنما هو المعنى».[٣٥]

٣- لغة العرب: «ولما كان سكان البرية في بيوت الشعر أو الصوف أو الخيام، من كل أمة، أجفى وأبعد من أن يتركوا ما قد تمكن فيهم بالعادة فيهم، وأحرى أن يحصنوا نفوسهم عن تخيل حروف سائر الأمم وألفاظهم وألسنتهم عن النطق بها، وأحرى ألا يخالطهم غيرهم من الأمم للتوحش والجفاء الذي فيهم، وكان سكان المدن والقرى وبيوت المدر منهم أطبع، وكانت نفوسهم أشد انقياداً إلى تفهم ما لم يتعودوه، ولتصوره وتخيله، وألسنتهم للنطق بما لم يتعودوه، كان الأفضل أن تؤخذ لغات الأمة عن سكان البوادي... وأنت تتبين ذلك متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء، فإن فيهم سكان البراري وسكان الأمصار، وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مئتين، وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة وأهل البصرة من أرض العراق، فتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري دون أهل الحضر، ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم ومن أشدهم توحشاً وجفاء وأبعدهم إذعاناً وانقياداً، وهم قيس وتميم وأسد وطيّئ، ثم هذيل، فإن هؤلاء هم معظم من نُقل عنهم لسان العرب، والباقون لم يؤخذ عنهم شيء، لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر».[٣٦] وأجمع علماء اللغة على أن قريشاً أفصح العرب، لأنهم كانوا يدفعون أبناءهم إلى البادية لتستقيم ألسنتهم وتقوى أبدانهم، وكانت سوق عكاظ تقام عندهم في مكة، يتبارى فيها الشعراء والخطباء والفصحاء، ما أكسبهم خبرة في الفصاحة والبلاغة، فقد «كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً وإبانةً عما في النفس».[٣٧] فلم يؤخذ عن لخم ولا جذام ولا إياد ولا الغساسنة ولا اليمامة ولا الطائف وغيرهم ممن جاور الأمم الأخرى أو خالطوا التجار الوافدين إليهم، «ثم الاعتماد على ما رواه الثقات عنهم بالأسانيد المعتبرة من نثرهم ونظمهم، وقد دُوِّنت دواوين عن العرب العرباء كثيرة مشهورة، كديوان امرئ القيس والطرمّاح وزهير وجرير والفرزدق وغيرهم، ومما يعتمد عليه في ذلك مصنفات الإمام الشافعي، رضي الله عنه، فقد قال ابن شاكر في «مناقبه»: حدثنا أحمد بن غالب، حدثنا عمر بن الحسن الحراني، حدثنا محمد بن أحمد الهروي، حدثنا زكريا بن يحيى

---

٣٥ الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص٨٩ – ٩٣.
٣٦ كتاب الحروف، أبو النصر الفارابي، ص١٤٦ – ١٤٧.
٣٧ الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص١٠١.

الساجي، حدثنا جعفر بن محمد، قال الإمام أحمد بن حنبل: كلام الشافعي في اللغو حجة»[٣٨] وقد «ذهب الدارسون في عصرنا إلى أن البصريين أخذوا بالقياس كما أخذوا بالسماع»[٣٩]، وهذا الكلام صحيح، إلا أنه لم يكن على اتساعه، إذ إن هذا الأخذ كانت له حدوده الضيقة والمتشددة، فقد «تميز منهج البصريين في دراسة اللغة بالصرامة وعدم التساهل في أخذها، إذ نظروا إليها نظرة مقدسة، فوضعوا مخططاً لغوياً حددوا فيه مجال الفصاحة زماناً ومكاناً؛ إذ نصّوا على القبائل التي ينبغي الأخذ عنها، ومن هنا حددوا مصادرهم اللغوية، التي استنبطوا من خلالها قواعدهم اللغوية والنحوية، معتمدين في المنهج العلمي على الأفصح من الألفاظ والأسهل منها على اللسان»[٤٠]، فتشدّدوا في أخذ اللغة عن العرب الأقحاح في البوادي والقبائل التي لم تفسد سلائقها، واشترطوا في العربي الفصاحة والبداوة وسلامة اللغة، وفي الراوي الثقة والدقة والضبط، وفي المنقول: الاطراد مع القواعد، فإن خالف القواعد والقياس فهو شاذ، ولم يتوسعوا في السماع، وإنما توسعوا في القياس، «وقانون القياس عام، وظلاله مهيمنة على كل القواعد إلى أقصى حد، بحيث يصبح ما يخرج عنها شاذاً، وبحيث تفتح الأبواب على مصاريعها ليقاس على القاعدة ما لم يسمع عن العرب ويحمل عليها حملاً، فهي المعيار المحكم السديد. وعلى هذه الشاكلة شادت البصرة صرح النحو ورفعت أركانه، بينما كانت الكوفة مشغولة عن ذلك كله، على الأقل حتى منتصف القرن الثاني للهجرة، بقراءات الذكر الحكيم ورواية الشعر والأخبار».[٤١] وقسموا المسموع إلى مطرد وشاذ، «وجعلوه أربعة أضرب:

أ- مطرد في القياس والاستعمال معاً، وهو الغاية المطلوبة.

ب- مطرد في القياس شاذ في الاستعمال، نحو الماضي من «يذر». ومجيء مفعول «عسى» (خبرها) اسماً صريحاً، نحو «عسى زيدٌ قائماً»، ففي السماع أن يأتي فعلاً.

ج- مطرد في الاستعمال شاذ في القياس، نحو قولهم استحوذ، واستنوق الجمل، واستصوبت الأمر، وأبى يأبى، والقياس الإعلال في الثلاثة، وكسر عين الأخير.

د- شاذ في القياس والاستعمال معاً، نحو قولهم: ثوب مصْوُوْن وفرس مقوُوْد»[٤٢]

٤- الاعتماد على أشعار العرب: «قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: اعتُمِد في العربية على أشعار العرب وهم كفار، لبعد التدليس فيها، فعُلم أن العربي الذي يُحتج بقوله لا يشترط فيه العدالة، نعم ويشترط في راوي ذلك. وكثيراً ما يقع في كتاب سيبويه: حدثني من لا أتهم، ومن أثق به، وينبغي الاكتفاء بذلك وعدم التوقف في القبول، ويحتمل المنع»[٤٣] أي بحسب حال الناقل، فإن كان ثقة قُبل، وإن كان مجروحاً مُنع. وأجمعوا على عدم الاحتجاج بكلام المولدين والمحدثين، واستثنى بعضهم علماء اللغة، كما نجد الزمخشري، في الكشاف، يستشهد بشعر أبي تمام، ويقول: وهو، وإن كان محدثاً لا يحتج بشعره، فهو من علماء العربية، «ونقل ثعلب عن الأصمعي: ختم الشعر بإبراهيم بن

---

٣٨ الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص ١٠٦ – ١٠٧.
٣٩ المدارس النحوية أسطورة وواقع، إبراهيم السامرائي، ص١٧.
٤٠ مدرسة البصرة ومنهجها في الدراسة اللغوية، عبد القادر بقادر، ص٥٠.
٤١ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٢٠.
٤٢ الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص١١٠ – ١١٢.
٤٣ الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص١١٥ – ١١٦.

هرمة، وهو آخر الحجج».[44] ومع رفض البصريين الاحتجاج بشعر أو نثر لا يعرف قائله، احتج سيبويه  في كتابه بخمسين بيتاً مجهولة القائلين».[45]
٥- القياس: هو تقدير الفرع بحكم الأصل، وقيل: حمل فرع على أصل بعلة جامعة، وإجراء حكم الأصل على الفرع، وقيل: إلحاق الفرع بالأصل لعلةٍ (جامع)، وقيل: هو اعتبار الشيء بالشيء لجامع، وهذه كلها تعريفات متقاربة».[46] وقد أعمل البصريون القياس، وتوسعوا في الأقيسة، وكشفوا عن براعة منطقية في الاستدلال القياسي، كما أن التعليل النحوي نضج في رحاب المدرسة البصرية، فكشفوا عن تعليلات نحوية عميقة، فلم يدعوا وجهاً يمكن تعليله في كلام العرب إلا التمسوا تعليله، حتى إنهم كانوا يفترضون المسائل النحوية افتراضاً، ويقتلونها درساً، ثم يخرجون بنتائج ما يصح وما لا يصح فيها، وهذا من أسلوب سيبويه الذي كان «يجري في مسابح العقل فيقدّر ما لم تنطق به العرب، لاحتمال جريانه على الأفئدة والألسنة... وسيبويه لا يعلل ما هو موجود فعلاً فقط، ولكنه يعرض من الأساليب ما قد يظن أنه غير عربي فصيح، ويبين وجه الحق فيه... ويفترض الأساليب، ويأتي منها بما فيه بعض التعقيد، ويبين صحته وتقديره، صارفاً النظر عن أنها مما نطقت به العرب فعلاً أو لا».[47] والقياس أمر ضروري في ما لم يسمع ولكن مثاله مطرد في العربية، «و إنكار القياس في النحو لا يتحقق، لأن النحو كله قياس، ولهذا قيل في حده: النحو علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو، ولا نعلم أحداً من العلماء أنكره؛ لثبوته بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وذلك أن أئمة الأمة من السلف ومن الخلف أجمعوا قاطبة على أنه شرط في رتبة الاجتهاد».[48] فإذا وُجد النموذج وتمكنت شواهده أصبح قاعدة يقاس عليها: «وأما من حيث القياس والتعليل فقد توسعوا فيهما، إذ طلبوا لكل قاعدة علة، ولم يكتفوا بالعلة التي هي مدار الحكم، فقد التمسوا عِلَلاً وراءها».[49]

**أعلام المدرسة البصرية:**

١- نصر بن عاصم الليثي، فقيه فصيح عالم بالعربية، ومن علماء النحو المبرزين في زمانه، قال الزهري: «إنه ليفلّق بالعربية تفليقاً»، وهو تلميذ أبي الأسود الدؤلي، قرأ عليه القرآن، وقرأ أبو الأسود على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فكان أستاذاً في القراءة والنحو، توفي بالبصرة عام ٨٩ هـ.[50] وينسب إليه نقط الحروف العربية بأمر من الحجاج بن يوسف، وقال السيرافي: إنه أول من وضع العربية (يعني النحو)، وروى ياقوت الحموي أن له كتاباً في النحو، تلمذ له عبد الله بن إسحاق الحضرمي، وأبو عمرو بن العلاء.[51]
٢- عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي: أول النحاة البصريين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، «وكان قيماً بالعربية والقراءة، إماماً فيهما؛ وكان شديد التجريد للقياس. ويقال: إنه كان أشد تجريداً للقياس من

---

[44] الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص١٤٨.
[45] الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص١٥٣.
[46] الإغراب في جدل الإعراب ولُمَعُ الأدلة، ابن الأنباري، ص٩٣.
[47] مدرسة البصرة النحوية، عبد الرحمن السيد، ص٨١ – ٨٢ – ٨٣.
[48] الإغراب في جدل الإعراب ولُمَعُ الأدلة، ابن الأنباري، ص٩٥.
[49] المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص
[50] نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص٧ – ٨.
[51] ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

أبي عمرو بن العلاء، وكان أبو عمرو بن العلاء أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها. ويروى أن بلال بن أبي بردة جمع بينهما، قال يونس: قال أبو عمرو: فغلبني ابن أبي إسحاق يومئذ بالهمز، فنظرت فيه بعد ذلك. ويقال إنه أول من علّل النحو».[٥٢]

٣- عيسى بن عمر الثقفي: كان عالماً بالعربية والنحو والقراءة، وكان فصيحاً يتقعّر في كلامه ويعدل عن سهل الألفاظ إلى الوحشي والغريب، وصنف كتابين في النحو: «الجامع» و«الإكمال»، وهذا ن الكتابان لم نرهما ولم نر أحداً رآهما، وذكرهما تلميذه الخليل بن أحمد الفراهيدي. توفي سنة ١٤٩هـ.[٥٣]

٤- أبو عمرو بن العلاء: العلم المشهور في علم القراءة واللغة والعربية، وكان من الشأن بمكان، اختلف في اسمه، وقيل اسمه زبان، وقيل اسمه كنيته، أخذ النحو عن نصر بن عاصم الليثي، وأخذ عنه يونس والخليل وعلي بن المبارك، وكان يقول: أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم العربية.[٥٤] عُني بإقراء الناس القرآن في المسجد الجامع بالبصرة، وهو أحد قرائه السبعة المشهورين، كما عني بلغات العرب وغريبها وأشعارها وأيامها ووقائعها، وفي ذلك يقول الجاحظ عنه: «كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس». فهو إلى أن يكون من اللغويين والقراء أقرب منه إلى أن يكون من النحاة، غير أنه نُقلت عنه بعض أنظار نحوية، جعلتنا نسلكه بين أوائلهم، وبخاصة أن ابن جني يقول: كان ممن نظروا في النحو والتصريف وتدربوا وقاسوا.[٥٥]

٥- أبو معاوية النحوي: شيبان بن عبد الرحمن التميمي، كان مولى لبني تميم، وكان يعلم أولاد داود بن علي بن عبد الله بن عباس، وكان قارئاً محدثاً نحويّاً، من مقدمي النحويين. سكن الكوفة زماناً، وانتقل عنها إلى بغداد. حدث عن الحسن البصري، ويحيى بن أبي كثير، وحدث عنه عبد الرحمن بن مهدي وغيره. وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن شيبان النحوي وعن هشام الدستوائي وعن حرب بن شداد، فقال: شيبان أرفع عندي، شيبان صاحب كتاب صحيح، قد روى شيبان عن الناس، فحديثه صحيح. وقال ابن عمار: أبو معاوية النحوي؛ هو بصري ثقة. توفي ببغداد سنة ١٦٤هـ.[٥٦]

٦- أبو عبد الله هارون بن موسى: وقيل أبو موسى، القارئ النحوي الأعور، كان من أهل البصرة، وكان عالماً بالنحو، وسمع الحديث عن طاوس اليماني، وثابت البناني، وحميد الطويل، وروى عنه علي بن الجعد وغيره. وقال عبد الله بن سليمان الأشعث: سمعت أبي يقول: كان هارون الأعور يهودياً فأسلم، وحسن إسلامه، وحفظ القرآن وضبطه، وضبط النحو. وناظره إنسان يوماً في مسألة، فغلبه هارون، فلم يدرِ المغلوب ما يقول، فقال له: أنت كنت يهودياً فأسلمت، فقال له هارون: فبئس ما صنعت؟! قال: فغلبه في هذا أيضاً. قال أبو حاتم السجستاني: سألت الأصمعي عن هارون بن موسى النحوي، فقال: كان ثقة مأموناً.[٥٧]

---

٥٢ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص١٠.
٥٣ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص١٢ – ١٤.
٥٤ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص١٥.
٥٥ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٢٧.
٥٦ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص١٩ – ٢٠.
٥٧ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص٢١ – ٢٢.

٨- حماد بن سلمة بن دينار البصري، من متقدمي النحويين، أخذ عنه يونس بن حبيب وسيبويه، قال يونس: عنه أخذت العربية[٥٨]، وكانت رواية الحديث تغلب عليه، غير أنه كان عالماً بالنحو، ولم ترو له كتب النحو أنظاراً نحوية، وكان سيبويه يأخذ عنه الحديث، كما مر بنا في نتقال سيبويه من طلب الحديث إلى طلب النحو. توفي سنة ١٦٩هـ.[٥٩]

٩- الأخفش الأكبر، أبو الخطاب، من أكابر علماء العربية ومتقدميهم، أخذ عنه أبو عبيدة معمر بن المثنى،[٦٠] ويونس وسيبويه جميعاً، وكانت تغلب عليه رواية اللغة، وليس له في النحو آراء موروثة، وقد أكثر سيبويه من الرواية اللغوية عنه في كتابه.[٦١]

١٠- يونس بن حبيب: لحق ابن أبي إسحاق وروى عنه، إذ وُلد سنة ٩٤هـ، وعاش طويلا، إذ توفي سنة ١٨٢هـ، اختلف إلى حلقات عيسى بن عمر، وقد لزم أبا عمرو بن العلاء، ورحل إلى البادية وسمع عن العرب كثيراً، ما جعله راوياً كبيراً من رواة اللغة والغريب، وصنف كتاباً في اللغات. وكانت حلقته في البصرة تغص بالطلاب، وفي مقدمتهم أبو عبيدة اللغوي، وكذلك سيبويه؛ واسمه يتردد في كتابه، ولكن غالباً في شواهد اللغة لا في الآراء النحوية، فسيبويه -على ما يبدو- لم يكن يعجب بتلك الآراء، وبخاصة في قواعد النحو وأقيسته، وبذلك غدا يونس

في نحوه وما وضعه من أقيسة أمةً وحده، وتنبه إلى ذلك القدماء، فقالوا: كانت ليونس مذاهب وأقيسة تفرد بها.[٦٢]

١١- الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، عربي من أزد عمان، ولد سنة مئة للهجرة، وتوفي سنة مئة وخمس وسبعين، ومنشؤه ومرباه وحياته في البصرة، اختلف منذ نعومة أظفاره إلى حلقات المحدثين والفقهاء وعلماء اللغة والنحو، وأكبّ إكباباً على حلقات أستاذيه عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، كما أكب على ما نُقل من علوم الشعوب المستعربة،[٦٣] فكان عالماً بالقراءات، والنحو، ولغة العرب، فأملى معجم العين على تلاميذه من صدره، إذ بناه على تقليب كل الصيغ الأصلية، بحيث تتندرج فيه مع كل كلمة الكلمات الأخرى التي تجمع حروفها وتختلف في ترتيبها بتقديم بعضها على بعض، كما كان عالماً بالفلك والرياضيات والموسيقا، وهذا ما هيأ له اكتشاف علم العروض بكل أوزانه وحدوده وتفعيلاته وتفريعاته وإطلاق المصطلحات عليها، ولم يُبق لمن جاؤوا بعده شيئاً يضيفونه إليه، وكان تقياً ورعاً زاهداً يعيش في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلس، وتلاميذه يكسبون بعلمه الأموال. جمعوا بينه وبين ابن المقفع، فتحادثا طويلاً، فلما افترقا سئل ابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: رأيته رجلاً عقله أكبر من علمه، وسألوا الخليل: كيف رأيت ابن المقفع، فقال: رأيته رجلاً علمه أكبر من عقله، فلما دار الزمن مات الخليل زاهداً، وقتل ابن المقفع زنديقاً. «واخترع علامات الضبط التي لا نزال نستعملها إلى اليوم؛ إذ أخذ من حروف المد صورها

---

[٥٨] نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص٤٢.
[٥٩] المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٢٢.
[٦٠] نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص٢٨.
[٦١] المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٢٢.
[٦٢] المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٢٨.
[٦٣] المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٣٠.

مصغرة للدلالة عليها، فالضمة واو صغيرة في أعلى الحرف، لئلا تلتبس بالواو المكتوبة، والكسرة ياء متصلة تحت الحرف، والفتحة ألف مبطوحة فوقه».[٦٤]

١٢- سيبويه: (رائحة التفاح، بالفارسية)، هذا لقبه، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، ولد بقرية البيضاء بشيراز، وتلقى فيها علومه، وقدم إلى البصرة للاستزادة من العلوم الدينية، فتلمذ لحماد بن سلمة في الحديث الشريف، ومر بنا سبب انقلابه من طالب حديث إلى طالب نحو، «ولزم حلقات النحويين واللغويين وفي مقدمتهم عيسى بن عمر والأخفش الكبير ويونس بن حبيب، واختص بالخليل بن أحمد، وأخذ منه كل ما عنده في الدراسات النحوية والصرفية، مستملياً ومدوناً، واتبع في ذلك طريقتين: طريقة الاستملاء العادية، وطريقة السؤال والاستفسار، مع كتابة كل إجابة وكل رأي يدلي به وكل شاهد يرويه عن العرب، وبذلك احتفظ بكل نظراته النحوية والصرفية. ولم تذكر كتب التراجم أنه رحل إلى البادية في طلب اللغة والسماع عن العرب ومشافهتهم، غير أن ما يتردد في كتابه من مثل قوله: سمعنا بعض العرب يقول، (وأشباه ذلك) يدل على أنه رحل إلى بوادي نجد والحجاز مثل أستاذه الخليل. و«الكتاب» يفيض بسيول من أقوال العرب وأشعارهم، لا يرويها عن شيوخه، وهي بدورها تؤكد، بل تحتِّم أنه رحل إلى ينابيع اللغة والنحو يستمد منها مادة وعتاداً فصيحاً صحيحاً بشاراته في النطق وهيئاته. ولما توفي الخليل خلفه في حلقته، وأكبّ حينئذ على تصنيف «الكتاب»، وسرعان ما أخذ نجمه يتألق، ليس في البصرة دار النحو فحسب، بل أيضاً في بغداد، ورحل إليها طامحاً إلى الشهرة في حاضرة الدولة، والتقى الكسائي مقرئ الكوفة ومؤدب الأمين بن الرشيد، في دار يحيى البرمكي، ويقال: إنه لقيه قبل الكسائي بعض أصحابه: الأحمر وهشام والفراء ليوهنوا منه. ولم يلبث صاحبهم أن تعرض له بالسؤال في المسألة الزنبورية»[٦٥]، التي أصابه الفالج على إثرها، إذ كان الحق معه، لكنهم تآمروا عليه، وفيه قال الشاعر:

والغبن في العلم أشجى محنة علمت     وأبرح الناس شجواً عالم هُضما

ولم يلبث بعدها طويلاً، إذ سافر إلى بلده ومات هناك، واختلف في تاريخ وفاته، والأرجح أنه توفي سنة ١٨٠هـ.

١٣- الأخفش الأوسط: أبو الحسن سعيد بن مسعدة، فارسي الأصل، تلمذ لسيبويه، وهو الذي روى عنه كتابه، بل كان الطريق الوحيدة إليه، إذ لا يعرفه أحد سواه، وكان يقول: كنت أسأل سيبويه عما أشكل عليَّ منه، فإن تصعَّب الشيء منه قرأته عليه. وقد جلس بعده للطلاب يمليه ويشرحه ويبينه، وعنه أخذه تلاميذه البصريون كالجرمي والمازني، وأخذه عنه علماء الكوفة، وعلى رأسهم إمامهم الكسائي. ولما رأى اهتمام تلاميذه الكوفيين جميعاً بالمسائل المتفرقة في النحو والصرف صنع لهم كتاب «المسائل الكبير»، وله وراءه كتب أخرى سقطت من يد الزمن، مثل كتاب الأوسط في النحو، وكتاب المقاييس، وكتاب الاشتقاق، وكتاب المسائل الصغير. وكان يعنى بشرح الأشعار، وله فيها كتاب «معاني الشعر»، وله في العروض والقوافي كتاب نوه به القدماء، ويقال: إنه زاد فيه على الخليل بحر المتدارك (المحدث أو الخبب)، ويظهر أنه إنما زاد اسمه فقط، إذ نجد للخليل أشعاراً على وزنه. ويقول الجاحظ: إنه كان ينشر في مصنفاته ضرباً من الغموض والعسر، كبي يلتمس منه الناس تفسيرها، رغبة في التكسب بها. وقد ترك البصرة إلى بغداد بأخرة من عمره. وما زال الطلاب

---

٦٤ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٣٣.

٦٥ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٥٧ – ٥٨.

يقبلون من كل حدب على دروسه وإملاءاته حتى توفي سنة ٢١١ للهجرة. وهو أكبر أئمة النحو البصريين بعد سيبويه، وفي رأينا أنه هو الذي فتح أبواب الخلاف عليه، بل هو الذي أعد لتنشأ، في ما بعد، مدرسة الكوفة، ثم المدارس المتأخرة المختلفة، فقد كان عالماً بلغات العرب، وكان ثاقب الذهن حاد الذكاء، فخالف أستاذه سيبويه في كثير من المسائل، وحمل ذلك عنه الكوفيون، ومضوا يتسعون فيه، فتكونت مدرستهم. ولا بد أن نلاحظ أن خلافاته وخلافات المدارس التالية، وكذلك خلافات البصريين التالين له، إنما هي خلافات في بعض الفروع، فإن النحو وأصوله وقواعده الأساسية تكونت نهائياً على يد سيبويه وأستاذه الخليل، وكأنهما لم يتركا للأجيال التالية سوى خلافات فرعية تتسع وتضيق بحسب المدارس وبحسب النحاة.[٦٦]

١٤- قُطْرب: هو محمد بن المستنير، بصري المولد والمربى، أقبل مبكراً على دراسة اللغة والنحو، ولزم سيبويه، ويقال: إنه هو الذي سماه قطرباً، إذ كان يبكر للأخذ عنه، حتى كان سيبويه كلما خرج من داره سحراً رآه ببابه، فقال له يوماً مداعباً: «ما أنت إلا قطرب ليل»، والقطرب دويبة تدب ولا تفتر، فثبتت الكلمة عليه ولصقت به، أخذ عن جماعة من العلماء البصريين، ونظن ظناً أنه أخذ عن الأخفش، الذي كان الطريقَ إلى كتاب سيبويه بعده، وعنه حمله العلماء، وطبيعي أن يحمله عنه قطرب في من حملوه، ما دام عني بالنحو والتقدم فيه، بل لقد اتخذه حرفة وأداة لتكسبه في تعليم أبناء الطبقة الممتازة ببغداد. وذاعت شهرته في ذلك فاتخذه الرشيد مؤدباً لابنه الأمين، وقربه منه أبو دلف العجلي أحد قواد الرشيد والمأمون النابهين، واتخذه مؤدباً لأولاده، وظل يعنى بتأديبهم إلى وفاته سنة ٢٠٦ للهجرة. وله في النحو والصرف كتب مختلفة، منها: كتاب العلل في النحو، وكتاب الاشتقاق في التصريف، وصنَّف بجانب ذلك كتباً متعددة في اللغة، مثل: كتاب الأضداد، وكتاب خَلْق الفرس، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب المثلث، وهو مطبوع، وكتاب ما خالف فيه الإنسان البهيمة. وكانت له عناية بالذكر الحكيم والحديث النبوي، فألف كتاباً في إعراب القرآن، وكتاباً في غريب الحديث. وكتابه «الرد على الملحدين في تشابه القرآن» يدل على صلته بالمعتزلة والمباحث الكلامية».[٦٧]

١٥- أبو عمر الجَرْميّ: صالح بن إسحاق، مولده ومنشؤه بالبصرة، وقد دأب منذ صغره على الاختلاف إلى حلقات علماء البصرة من النحاة واللغويين، ويقال: إنه لم يلق سيبويه، غير أنه لزم الأخفش وأخذ عنه كل ما عنده. ويزعم بعض الرواة أنه هو وزميله المازني خشيا - بعد وفاة سيبويه وحمل الأخفش لكتابه - أن يدّعيه لنفسه، وكان الجرمي موسراً، فعرض عليه شيئاً من المال ليقرأ هو وصاحبه عليه الكتاب، وأجابه إلى طلبه، فأخذا الكتاب عنه وأشاعاه في الناس. ويقول المبرد: عليه قرأتْ جماعة النحاة. ويذكر أنه قدم أصبهان مع فيض بن محمد عند منصرفه من الحج، فأعطاه يوم مقدمه عشرين ألف درهم، وكان يعطيه كل سنة اثني عشر ألفاً. ونزل بغداد في أوائل العقد الأول من القرن الثاني للهجرة، واختلف إليه الطلاب يحاضرهم في كتاب سيبويه، ويملي عليهم بعض مصنفاته، وظل بها إلى وفاته سنة ٢٢٥هـ. وله في النحو والصرف كتب مختلفة، من أهمها: كتاب المختصر في النحو، وكتاب الأبنية، وصنف في العروض. وعني بكتاب سيبويه، فألف في غريبه كتاباً، وألف في شواهده الشعرية كتاباً آخر نسب فيه الشواهد التي فاتت سيبويه نسبتها في الكتاب

---

٦٦ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٩٤ – ٩٥.

٦٧ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ١٠٨ – ١٠٩.

إلى أصحابها، ما عدا خمسين شاهداً لم يقف على قائليها. وكان علماء النحو في عصره وبعد عصره يتداولون كتبه، وشرحوا كتابه المختصر مراراً.[٦٨]

١٦- أبو عثمان المازني: بكر بن محمد بن بقية من بني مازن الشيبانيين، من أهل البصرة، بها مولده ومرباه، وأكب منذ صباه على حلقات النحاة واللغويين البصريين، كما أكب على حلقات المتكلمين، ولزم الأخفش، وأخذ عنه كتاب سيبويه، حتى إذا توفي هو والجرمي أصبح عَلَم البصرة المفرد في النحو والتصريف. ويقال: إنه ورد بغداد في عهد المعتصم، وأخذ عنه كثير من أهلها، وعاد إلى موطنه، وقد عاش يدرس لطلابه كتاب سيبويه، وصنَّف حوله تعليقات وشروحاً، منها: تفاسير كتاب سيبويه، والديباج في جوامع كتاب سيبويه. وألف في علل النحو كتاباً، وخص التصريف بكتاب شرحه ابن جني، سماه المنصف. ومن مصنفاته كتاب «ما يَلحن فيه العامة»، وكتاب الألف واللام، وكتاب العروض، وكتاب القوافي. واختُلف في سنة وفاته، والراجح أنها كانت سنة ٢٤٩هـ.[٦٩]

١٧- المبرد: محمد بن يزيد الأزدي، إمام نحاة البصرة لعصره، وُلد بها ما بين سنتي ١٩٥ و٢١٠هـ، وأكبَّ منذ نشأته على التزود من اللغة على أعلام عصره البصريين، وشُغف بالنحو والتصريف، ولزم أبا عمر الجرمي يقرأ عليه كتاب سيبويه، حتى إذا توفي لزم أبا عثمان المازني، وتصدر حلقته يقرأ عليه الكتاب والطلاب يسمعون قراءته. وبلغ من إعجاب المازني بفطنته أن لقبه بالمبرِّد (بكسر الراء) لحسن تثبته وتأتيه في العلل، ويفتح الكوفيون الراء عنتاً له وسوء قصد. ولمع اسمه، فاستدعاه المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان إلى سر من رأى، سنة ٢٤٦هـ، ليفتي الفتوى الصحيحة في بعض المسائل اللغوية والنحوية، وأجزلا له العطاء، حتى إذا توفيا سنة ٢٤٧ كتب محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد يستقدمه إليه، وقدم إلى بغداد وألقى بها عصاه، وأجرى عليه محمد بن عبد الله راتباً، حتى إذا توفي تابع أخوه عبيد الله، الذي خلفه على شرطة بغداد، إجراء الرواتب عليه. وقد مضى يحاضر الطلاب ببغداد في النحو واللغة، وسرعان ما اصطدم بثعلب زعيم مدرسة الكوفة لعصره، وكثرت بينهما المناظرات، وكتب له فيها دائماً التفوق عليه؛ لقدرته على الجدل وإصابته للحجة وحسن بيانه، ما جعل كثيرين من تلاميذ ثعلب يتحولون إلى حَلْقته، يتقدمهم ختنه أبو علي الدينوري. وما زال مفزع طلاب اللغة والنحو ببغداد حتى توفي سنة ٢٨٥هـ أو ٢٨٦هـ.[٧٠]

١٨- الزجاج: أبو إسحاق إبراهيم بن السَّرِيّ بن سهل، كان في حداثته يخرط الزجاج، فنُسب إليه، ورغب في درس النحو، فلزم المبرد، وكان يعلِّم مجاناً، فجعل له على نفسه درهماً كل يوم، أجرة على تعليمه، وظل يؤديه إليه طوال حياته. وحسن رأي المبرد فيه، حتى كان من يريد أن يقرأ عليه شيئاً من كتاب سيبويه أو غيره يأمره بأن يعرض على الزجاج أولاً ما يريد قراءته. والتمس منه بعض ذوي الوجاهة معلماً لأولادهم، فأسماه لهم، ولم يلبث عبيد الله بن سليمان وزير الخليفة المعتضد أن طلب منه معلماً لابنه القاسم، فقدمه إليه، ولما وزر القاسم بعد أبيه اتخذه كاتباً له فأقبلت الدنيا عليه، وأصبح من جلساء الخلفاء ومن تجرى عليهم رواتبهم. وظل في عيشة رخية حتى توفي سنة ٣١٠هـ. وله مصنفات مختلفة، منها: كتاب شرح أبيات سيبويه، ومختصر في النحو، وكتاب

---

٦٨ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص١١ – ١١٢.

٦٩ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ١١٥.

٧٠ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ١٢٣ – ١٢٤.

الاشتقاق، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف، وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب معاني القرآن، وكتاب القوافي، وكتاب في العروض.[٧١]

١٩- ابن السراج: أبو بكر محمد بن السري، من أحدث تلاميذ المبرد سناً، مع ذكائه وحدّة ذهنه، عكف على دروس أستاذه، متزوداً بكل ما عنده من أزواد نحوية ولغوية. وعُني إلى جانب ذلك بدراسة المنطق والموسيقا، وتحول بعد موت المبرد إلى حلقات الزجاج يعبّ منها وينهل، ثم استقل عنه بحلقة كان يؤمّها كثير من الطلاب، في مقدمتهم السيرافي، وأبو علي الفارسي، وعليه قرأ كتاب سيبويه. وكان يُعنَى عناية واسعة بعلل النحو ومقاييسه، وفيهما صنّف كتاب الأصول الكبير، انتزعه من كتاب سيبويه، وأضاف إليه إضافات بارعة، ويقال: إنه جعله تقاسيم على طريقة المناطقة. ولم يكتف فيه بآراء سيبويه، فضم إليه كثيراً من آراء الأخفش الأوسط والكوفيين موازناً ومقارناً. وقال له أحد تلاميذه وهو يلقي بعض فصول هذا الكتاب: إنه أحسن من كتاب المقتضب للمبرد أستاذه، فبادره بقوله: لا تقل هذا؛ فإنما استفدنا ما استفدناه من صاحب المقتضب، وكان يحسن نظم الشعر وإنشاد المأثور منه في الأوقات والمواقف المناسبة، وله وراء كتاب الأصول مصنفات نحوية مختلفة، منها كتاب مجمل الأصول، وكتاب الاشتقاق، وشرح سيبويه، وكتاب احتجاج الفراء. وما زال يفيد طلابه بعلمه الغزير حتى توفي سنة ٣١٦هـ.[٧٢]

٢٠- السيرافي: أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان، وُلد بسيراف سنة ٢٨٠ للهجرة، وكان أبوه مجوسياً يسمى بهزاد، فأسلم وتسمى باسم عبد الله، ودفع ابنه إلى التعلم منذ نعومة أظفاره، ولم يلبث التلميذ الناشئ أن أكبّ على دروس اللغة والدراسات الدينية ببلدته، ولم يكد يبلغ العشرين من عمره حتى خرج إلى عُمان وتفقه على شيوخها، ثم تحول عنها إلى بغداد، فدرس اللغة على ابن دريد، والنحو على ابن السراج، والقراءات علي أبي بكر بن مجاهد، وتعمق في الفقه تعمقاً جعله يُختار لتولي منصب القضاء، وتدريس الفقه الحنفي للطلاب بمسجد الرصافة، نحو خمسين عاماً. وبلغ من إجلال الناس له أن كانوا يخاطبونه بإمام المسلمين، وشيخ الإسلام. وإلى جانب ذلك كان يعنى بالنحو، ويفزع إليه الطلاب في تفسير عويصه وحل مشكلاته ومستغلقاته. وكان معتزلياً، ما جعله شديد الصلة بالمنطق والمباحث الفلسفية، وهي صلة سلّحته بقوة الحجة وسلامة البرهان، ما أضرم فيه نار الجدل، وجعله يظفر دائماً بمناظريه. ومناظرته التي أفحم فيها متى بن يونس مشهورة، وكان موضوعها النحو والمنطق؛ أيهما أدق في معرفة صحيح الكلام من سقيمه وسديده من مدخوله، وكان يدافع فيها عن النحو، وأغصه بريقه. وكان يشغف شغفاً شديداً بكتاب سيبويه، فألف عليه شرحه المطول، الذي لم يطبع إلى اليوم، وهو يضم فيه آراء مخالفيه من البصريين والكوفيين جميعاً، متوقفاً دائماً للرد على الأخيرين. وألف مصنفاً في شرح شواهد سيبويه، ومصنفاً ثانياً سماه «المدخل إلى الكتاب». وترجم لنحاة البصرة في كتابه «أخبار النحاة البصريين». ومن مصنفاته كتاب «ألفات الوصل والقطع» وكتاب «شرح مقصورة ابن دريد» وكتاب «الإقناع في النحو» لم يتمه، وكتاب «صناعة الشعر والبلاغة» وكتاب «جزيرة العرب». وما زال يوالي نشاطه في التأليف والتصنيف حتى توفي سنة ٣٦٨ هـ.[٧٣]

---

٧١ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص١٣٥.

٧٢ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص ١٤٠ – ١٤١.

٧٣ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص١٤٥ – ١٤٦.

*** تأسيس المدرسة الكوفية:**
تعد مدرسة الكوفة النحوية واحدة من أهم المدارس النحوية في التراث العربي، واشتهرت باهتمامها بجمع اللغة من لهجات العرب المختلفة، وعدم الاقتصار على القرآن الكريم والشعر العربي القديم مصادرَ للغة، ما جعلها تختلف في بعض أوجهها عن مدرسة البصرة النحوية.
ازدهرت مدينة الكوفة باستقطابها العلماءَ واللغويين الذين انصرفوا إلى علم القراءات والفقه، قبل أن يهتموا بدراسة اللغة العربية ونحوها وصرفها. أما المدرسة النحوية الكوفية فقد نشأت في منتصف القرن الثاني للهجرة، أي بعد المدرسة البصرية بعقود.
وقد اعتمدت المدرسة الكوفية على رواية اللغة من البادية، فكانت أكثر تسامحاً في قبول الروايات المختلفة، ما جعلها أقل تقيداً بالقياس الصارم الذي تميزت به مدرسة البصرة.

**منهج المدرسة الكوفية ومصادرها:**
١- الاعتماد على الرواية: فاهتموا بجمع اللغة من أفواه العرب في البادية، ما جعلهم يتقبلون اللهجات المختلفة، «فاعتمدوا على جمع الشواهد من لهجات القبائل العربية المختلفة، دون تقيّد بلهجة قريش كما هي الحال عند البصريين، لذا كان الكوفيون أكثر تقبلاً للتنوع اللغوي».[٧٤]
٢- التوسع في القياس: إذ يميل الكوفيون إلى استخدام القياس في النحو، ولكن بشكل أقل صرامة من البصريين، «فاتسعوا في الرواية وتساهلوا في شروط المروي» فكانت تلك الشواهد مصدراً مثرياً لقواعد النحو لديهم.[٧٥]
٣- التساهل والبعد عن التعقيد: فكانت تميل إلى تبسيط القواعد النحوية مقارنةً بالمدرسة البصرية، «فكانوا يأخذون عمن سكن الحواضر».[٧٦]
٤- المنهج النقلي: إذ مال الكوفيون إلى منهج أكثر نقلاً من منهج البصريين العقلاني، «فلم يكتفوا بالقياس على ما سمعوه ممن فسدت سلائقهم من أعراب المدن، وعلى ما شذ على ألسنة بعض أعراب البدو، إنما تعدوا ذلك إلى القياس بدون استناد إلى سماع».[٧٧]

أعلام مدرسة الكوفة
١- الكسائي: أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي بالولاء، الكسائي الكوفي، (١١٩-١٨٩هـ)، ولد في الكوفة، وهو إمام الكوفيين في اللغة والنحو، وسابع القراء السبعة. ويعد المؤسس الحقيقي للمدرسة الكوفية في النحو. أخذ النحو عن الخليل بن أحمد الفراهيدي، أي أنه تلميذ البصريين، ثم سافر في بادية الحجاز ونجد مدة طلباً للعربية، ولزم معاذاً الهراء، فأصبح مثالًا يحتذى به في علمه بفنون اللغة وقواعدها، وصار إمام نحاة الكوفة، وبلغ عند هارون الرشيد منزلة عظيمة، وأدب ولده الأمين، ونال جاهًا وأموالًا. له عدد من التصانيف من أشهرها: معاني القرآن ومقطوع القرآن وموصوله، وكتاب في القراءات، وكتاب النوادر الكبير وكتاب النوادر

---
٧٤ الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي، ص٤٢.
٧٥ الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، ص٢٢٩.
٧٦ الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، ص٢٣٠.
٧٧ الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، ص٢٣١.

الأصغر، ومختصر في النحو، وكتاب اختلاف العدد وكتاب قصص الأنبياء وكتاب الحروف وكتاب العدد وكتاب القراءات وكتاب المصادر وكتاب الهجاء وغيرها.[٧٨]

٢- الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور بن مروان الأسلمي الديلمي الكوفي، مولى بني أسد، لقب بالفراء لأنه كان يفري الكلام، أي يصلحه. ولد في الكوفة سنة ١٤٤هـ، ثم انتقل إلى بغداد وجعل أكثر مقامه فيها. أخذ العلم عن الكسائي ويونس بن حبيب، كما روى عن قيس بن الربيع ومندل بن علي وكان يتصل بالأعراب ويأخذ ممن يثق به. وكان أحفظ الناس لنوادر الكسائي. وكان من أشهر النحويين الكوفيين، وأكثرهم اطلاعاً على علوم النحو واللغة وفنون الأدب. وكان في منهجه مكثراً من الرواية مهتماً بالنقل، وكان يقف على دقائق اللغة والاختلافات الصوتية. له عدد من المؤلفات، هي: كتاب الحدود، وكتاب المعاني، وكتاب المصادر في القرآن، وكتاب الوقف والابتداء، وكتاب الجمع والتثنية في القرآن، وآلة الكاتب، وكتاب المفاخر، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب المذكر والمؤمث، وكتاب الأيام والليالي والشهور، وكتاب المنقوص والممدود، وكتاب لغات القرآن.[٧٩]

٣- ثعلب: أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار البغدادي النحوي، الشيباني ولاء (٢٠٠ هـ - ٢٩١ هـ)، شيخ العربية وإمام الكوفيين في النحو واللغة والحديث. كان راويا للشعر، ومحدّثاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم، مقدماً عند الشيوخ منذ حداثته. وكان إمام الكوفيين في عهده، وثالث ثلاثة قامت على أعمالهم مدرسة الكوفة النحوية، العلامة المحدث، وإمام النحو، صاحب الفصيح والتصانيف، ولد ببغداد في السنة الثانية من خلافة المأمون وبها مات. سمي ثعلباً لأنه كان إذا سئل عن مسألة أجاب: من هاهنا وهاهنا، فشبهوه بثعلب إذا أغار، وله باع في عدد من العلوم كالفقه، لكن غلبت عليه البضاعة اللغوية.

. **ابن السكيت (٨٠٢ - ٨٥٨ م)**: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت، كان مهتماً باللغة والشعر إلى جانب النحو، وله كتاب "إصلاح المنطق".

## الفرق بين المدرستين البصرية والكوفية:

رجح الجاحظ فصاحة المجتمع البصري على فصاحة المجتمع الكوفي، اللذين صدرت عنهما المدرستان، فقال: «حدثني أبو سعيد عبد الكريم بن روح، قال: قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم - معاشر أهل البصرة - لغةٌ فصيحة، إنما الفصاحة لنا - أهل مكة. فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقةً، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم؛ أنتم تسمون القدر «برمة»، وتجمعون البرمة على «بِرام»، ونحن نقول: «قِدرٌ»، جمعها على «قدور»، وقال الله عز وجل: ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾،[٨٠] وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت «علِّيةً»، وتجمعون هذا الاسم على «علالي»، ونحن نُسميه «غرفة»، ونجمعها على

٧٨ ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
٧٩ ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
٨٠ سورة سبأ: ١٣.

«غُرُفاتٍ» و«غُرَفٍ»، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾،(٨١) وقال: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾،(٨٢) وأنتم تسمون الطلع «الكافور» و«الإغريض»، ونحن نسميه «الطلع»، وقال الله عز وجل: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾.(٨٣) فعد عشر كلمات، لم أحفظ أنا منها إلا هذا... ويسمي أهل الكوفة الحوك (البقلة الحمقاء) «باذروج»، وهي فارسية و«الحوك» عربية، وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها «مربعة» ويسميها أهل الكوفة «الجهار سو» بالفارسية...».(٨٤) وذكر عدداً من المفردات الفارسية يستخدمها الكوفيون في حياتهم اليومية، ولا ريب أن هذا له أثره في لغة علماء الكوفة وفصاحتها.

بدأ الخلاف النحوي مبكراً، مع نشأة النحو العربي، ولا سيما عند استخلاص الظواهر النحوية وتقعيدها، فقد تطور ذلك الخلاف بين نحاة المدرستين الكوفة والبصرة، فضلاً عن علماء المدرسة الواحدة، والسبب يعود إلى طريقة جمع اللغة والأخذ من الأعراب، كلٌّ هذا أدى إلى ظهور الخلافات النحوية التي طورت الدرس النحوي في ضوء المسايرة والحشد العلمي. وفي كتاب سيبويه، وكتاب «مجالس العلماء» للزجاجي أمثلة وصور من المناظرات والخلافات النحوية، بين أوائل النحاة، وهم الخليل ويونس وسيبويه وشيوخهم، ما يدل على أنَّ النظرة إلى المسائل النحوية لم تكن نظرة سطحية، وإنما كانت نظرة ملؤها الدقة والعمق والفهم والاستنباط والدليل والحجة الواضحة. ويعد كتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف» لأبى البركات الأنباري أشهر كتب الخلاف في النحو العربي، إذ اشتمل على معظم المسائل الخلافية بين نحاة المدرستين البصرة والكوفة، واعتمد الموازنة بينهم.(٨٥)
ويمكن إجمال الخلافات بينهم في خمسة مرتكزات:

١- البصريون أخذوا اللغة من بوادي نجد والحجاز وتهامة، أمّا الكوفيون فقد أخذوا من عموم القبائل العربية.

٢- البصريون يفسرون الظواهر اللغوية في القرآن الكريم بأفصح لغات العرب، وهم يعدّون الذي لا يأتي على القياس مما يسمع ويحفظ ولا يقاس عليه، في حين يسمع الكوفيون اللغة أكثر مما يقيسون، ولا سيما شيخهم الكسائي.

٣- ثمة تفاوت في القدرة على الاستنباط بين علماء المدرستين، وبين علماء المدرسة الواحدة.(٨٦)

٤- الكوفيون أخذوا عن البصريين، «وحتى منتصف القرن الثاني للهجرة قلما نظرت مدرسة الكوفة في قواعد النحو، إلا ما سقط إلى بعض أساتيذها من نحاة البصرة، إذ كانوا يتلمذون لهم ويختلفون إلى مجالس محاضراتهم وإملاءاتهم. وكان القدماء يعرفون ذلك معرفة دقيقة، ومن ذلك قول ابن سلام: وكان لأهل البصرة في العربية قدمة، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية».(٨٧)

٥- كانت مدرسة البصرة نموذجاً للأمانة العلمية، موثوقة الشواهد، صحيحة الأدلة، أما مدرسة الكوفة فكانت تسمى مدرسة السك، تشبيهاً لها بدار إصدار النقود، إذ كانوا يركبّون الأدلة وينسبونها إلى

---

٨١ سورة الزمر: ٢٠.
٨٢ سورة سبأ: ٣٧.
٨٣ سورة الشعراء: ١٤٨.
٨٤ البيان والتبيين، الجاحظ، ص٤١-٤٢.
٨٥ حقيقة الخلاف في خمس مسائل الإنصاف - رحيم جمعة علي الخزرجي، ص١٣٧.
٨٦ حقيقة الخلاف في خمس مسائل الإنصاف، رحيم جمعة علي الخزرجي، ص١٣٧.
٨٧ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٢٠.

العرب، ويؤلفون الأبيات الشعرية وينحلونها شعراء جاهليين، ليثبتوا صحة رأيهم بالتدليس والكذب، ولا أدل على ذلك من فعل إماميها؛ الكسائي في مناظرته سيبويه في المسألة الزنبورية، وتآمر أنصاره مع الأعراب ليشهدوا له جوراً وميناً، وحماد الراوية الذي ارتجل أبياتاً عند الخليفة المهدي ونحلها لزهير بن أبي سلمى، في مواجهة المفضل الضبي، ولما تبينت الحقيقة للمهدي أمر خادمه فخرج إلى العلماء فقال: يا معشر من حضر من أهل العلم، إن الخليفة يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها، ووصل المفضل بخمسين ألفًا لصدقه وصحة روايته، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل.[٨٨] وقد اشتهر حماد بالتدليس مع إتقانه تشبيه ما يدلس بأساليب من يحلهم الشعر، «قال ابن الأعرابي: سمعت المفضل الضبي يقول: قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا. فقيل له: وكيف ذلك؟ أيخطئ في روايته أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره، ويُحمل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك»![٨٩] كما اشتهر من الكوفيين بالكذب خلف الأحمر، ولم يكن لهم من غاية في كذبهم وتدليسهم سوى سبق البصريين والامتياز عليهم.

### أثر المدرسة البصرية في المناهج اللغوية والمدارس التي نشأت بعدها:

**المدرسة الكوفية:** مر بنا أن علماء الكوفة، وعلى رأسهم إمامهم الكسائي، درسوا على إمام مدرسة البصرة الأخفش الأوسط كتاب سيبويه، وأخذوه عنه، وأنه لما رأى اهتمامهم جميعاً بالمسائل المتفرقة في النحو والصرف، صنع لهم كتاب «المسائل الكبير»، وهذا دليل كاف لأن نقول إن المدرسة الكوفية هي صنيعة المدرسة البصرية وابنتها، وإنما هي فرع منها اجتهد أئمته، في ما بعد، في مسائل قتلها البصريون بحثاً واستدلالاً، محاولين أن يصبغوها بصبغتهم ويصنعوا لأنفسهم كياناً مستقلاً، إضافة إلى تغيير المصطلحات البصرية مستبدلين بها مصطلحات تميزهم عن البصريين، كم مر بنا في دراسة أحمد خليل حبيب زنكنه «المصطلحات النحوية المتناظرة بين البصريين والكوفيين عند الدارسين المحدثين»، إذ اختلفت المسميات والمفهوم واحد.

**المدرسة البغدادية:** اتبع نحاة بغداد في دراساتهم ومصنفاتهم النحوية نهجاً يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية، وكان من أهم ما هيأ لهذا الاتجاه الجديد أن أوائل هؤلاء النحاة تلمذوا للمبرد البصري وثعلب الكوفي، وبذلك نشأ جيل من النحاة يحمل آراء مدرستيهما، ويعنى بالتعمق في مصنفات أصحابهما، والنفوذ من خلال ذلك إلى كثير من الآراء النحوية الجديدة. وكان علمان من أعلام جيلها الثاني ينسبان أنفسهما إلى البصريين، وهما أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني، إذ يعبران في تصانيفهما عنهم كثيراً بكلمة «أصحابنا»، وينتصران في الغالب للآراء البصرية... وإن ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط، الذين جمعوا بين علمي البصرة والكوفة - كما يقول الزجاجي - هم الذين اشتقوا احتجاجات الكوفيين في جملتها، وهم الذين انتزعوا مقاييسها

---

٨٨ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ج٦، ص٧٨.

٨٩ مصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين أسد، ص٤٤٠.

وعللها، مع ما أمدهم به الكوفيون من الكسائي إلى ابن الأنباري، وكان تثقفهم بالنحو البصري وما بُسط فيه من العلل والمقاييس ووجوه الاحتجاج مادة صاغوا منها عملهم.[٩٠]

**المدرسة المصرية:** كان طبيعيا أن تنشط دراسات النحو في مصر مبكرة مع العناية بضبط القرآن الكريم وقراءاته، مما دفع إلى نشأة طبقة من المؤدِّبين، الذين كانوا يعلِّمون الشباب في الفسطاط والإسكندرية مبادئ العربية كي يحسنوا تلاوة الذكر الحكيم، وأسهم في ذلك معهم غير عالم ممن كانت تجذبهم مصر إليها، ومن أقدمهم عبد الرحمن بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلي، وكان أخذ القراءة عن عبد الله بن العباس وأبي هريرة، وعنه أخذها نافع، وعن نافع أخذ ورش (عثمان بن سعيد) القبطي الأصل، وكان ماهراً في العربية. وأول نحوي حمل بمصر راية النحو بمعناه الدقيق وَلَّاد بن محمد التميمي البصري الأصل، الناشئ بالفسطاط، وقد رحل إلى العراق، فلقي الخليل بن أحمد وأخذ عنه ولازمه، وسمع منه الكثير، وعاد إلى مصر ومعه كتبه التي استفادها في العربية من إملاءات الخليل، وأخذ يحاضر فيها الطلاب، يقول الزبيدي: «لم يكن بمصر كبير شيء من كتب النحو واللغة قبله». وكان يعاصره أبو الحسن الأعز الذي تلمذ على الكسائي. وبذلك اتصلت الدراسات النحوية بمصر في زمن مبكر بإمامي المدرستين الكوفية والبصرية.[٩١] وهذا يبين أن أثر المدرسة البصرية في مصر كان أسبق وأوسع.

**المدرسة الأندلسية:** أول نحوييها جودي بن عثمان المغربي، الذي رحل إلى المشرق وتلمذ للكسائي والفراء، وأول من أدخل إلى بلاده كتب الكوفيين، لذلك تأخرت عناية الأندلس بالنحو البصري، حتى إذا أصبحنا في أواخر القرن الثالث الهجري وجدنا الأُفْشْنيق محمد بن موسى بن هاشم يرحل إلى المشرق ويلقى بمصر أبا جعفر الدينوري، ويأخذ عنه كتاب سيبويه رواية، ويقرؤه بقرطبة لطلابه. ويأخذ كثير من النحويين في مدارسة الكتاب، مثل أحمد بن يوسف بن حجاج، ثم جاء محمد بن يحيى المهلبي الرباحي الجياني، الذي أخذ كتاب سيبويه عن ابن النحاس في مصر، وعاد إلى قرطبة يفرغ له ولقراءته على الطلاب، شارحاً له ومفسراً تفسيراً مبيناً. وكان يعاصره في قرطبة أبو علي القالي البغدادي الذي نزل الأندلس وقاد فيها نهضة لغوية ونحوية خصبة، كان معوَّله فيها على قراءة ذخائر اللغة والشعر والنحو التي حملها معه من المشرق، وكان مما حمله كتاب سيبويه، أخذه عن ابن درستويه عن المبرد، وكان يجنح إلى المذهب البصري وينافح عنه مناظراً مجادلاً.[٩٢] وفي دراسة منى أحمد حسين كرار «أثر المدرسة البصرية في النحو الأندلسي» قالت: نتيجة لتشدد نحاة البصرة في السماع نفر نحاة الأندلس المبتدئون من النحو البصري وتعقيداته، ومالوا إلى النحو الكوفي، الذي ظل مسيطراً في الأندلس سنوات عديدة، لكن عندما قويت شوكة الأندلسيين النحوية وجدوا أنفسهم في القدرة على تجاوز النحو الكوفي المختصر، إلى النحو البصري بأحكامه وقياساته الدقيقة، ليتخلصوا من الفوضى التي يوقعهم فيها النحو الكوفي، باعتماده على قاعدة بمجرد سماع مثال واحد أو بيت شعر مجهول النسبة، لذلك وجه علماء الأندلس جهودهم نحو البصرة وعلمائها، فأخذوا النحو البصري الذي طُبع به نحوُهم في ما بعد.

---

[٩٠] المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٢٤٥ – ٢٤٧.
[٩١] المدارس النحوية، شوقي ضيف، ٣٢٧ – ٣٢٨.
[٩٢] المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص٢٨٨ – ٩٠.

«ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم السر في أن نحو المدرسة البصرية هو الذي ظل مسيطراً على المدارس النحوية التالية، وعلى جميع الأجيال العربية التي جاءت من بعدهم؛ لأن قواعدهم هي القواعد المطردة مع الفصحى، ونقصد الكثير فيها الذي استُخرجت منه تلك القواعد استخراجاً مصفى مروقاً أروع ما يكون الترويق والتصفية. على أنه ينبغي أن نعرف أن المدرسة البصرية حين نحّت الشواذ عن قواعدها لم تحذفها ولم تسقطها، بل أثبتتها، أو على الأقل أثبتت جمهورها، نافذة في كثير منها إلى تأويلها، كي تنحي عن قواعدها ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن خللاً يشوبها، وكي لا يغمض الوجه الصحيح في النطق على أوساط المتعلمين، إذ قد يظنون الشاذ صحيحاً مستقيماً، فينطقون به ويتركون المطرد في لغة العرب الفصيحة وتصاريف عباراتهم وألفاظهم. ومن هنا يتضح خطر قواعدهم ـ بالقياس إلى ما زاده الكوفيون من قواعد استنبطوها من الشواذ النادرة ـ إذ إن ذلك يعرض الألسنة للبلبلة، لما يعترضها من تلك القواعد التي قد تخنق القواعد العامة. وقد ينجذب إليها بعض من لم يفقه الفرق بين القاعدة الدائرة على كثرة الأفواه، بل على كثيرها الأكثر، والقاعدة التي لم يرد منها إلا شاهد واحد، ما قد يؤول إلى اضطراب شديد في الألسنة»[٩٣]

## الخاتمة

مما سبق تبين لنا أن مدرسة البصرة هي التي أسست علم النحو، ونهض أئمتها به، فتقصوا الأساليب اللغوية، واستنبطوا قواعد النحو، فأصلوا أصوله، وفرعوا فروعه، ووضعوا له المصطلحات، وما يصح وما لا يصح، وميزوا المطرد من الشاذ، وما يقاس عليه مما لا يقاس، وما يقبل وما يرد، وحددوا مصادرهم وحصروها في الجهات الموثوقة، وتشددوا في وضع الضوابط في الأخذ والنقل والاستنباط والاجتهاد، وتوسعوا في القياس، فجاءت استنباطاتهم ذكية، واستدلالاتهم منطقية، واستنتاجاتهم ثقة مكينة، فحفظوا اللغة العربية من الضياع، وأنقذوا العرب والمسلمين من الغرق في بحر اللحن الطامي، والذي كان سيتسع تدريجيا حتى لا تبقى فصاحة ولا يعرف بيان، ليأتي من بعدهم من العلماء والمدارس فلا يجدوا شيئاً يمكن أن يقال بعد قولهم، إلا مسائل قليلة في الفروع والاصطلاح، وقد تلمذ للبصريين أصحاب مدرسة الكوفة، وعلى رأسهم إمامها الكسائي، وإنما خالفوهم بعد ذلك من باب المنافسة ليصنعوا لأنفسهم شيئاً يتفردون فيه ويتميزون عنهم، ثم جاءت المدارس الأخرى بعدهما، فدرست حجج المدرستين، واتخذت مذهب الترجيح، فأخذت عن الكوفة النزر القليل، في حين ملأت أحواضها من علم البصريين وآثارهم، وأجرت في سواقيها نتاج جهودهم في الاستقصاء والنقل، وإمكاناتهم في الاستنباط والعقل، وإن كانت أخذت شيئا عن الكوفيين فإنما كان هؤلاء تلاميذ البصريين في النحو، فيرجع الفضل في كل المدارس إلى يومنا هذا إلى مدرسة البصرة، وإلى أعلامها النابهين المجتهدين الذين بذلوا مالهم ووقتهم وجهدهم، وأفنوا أعمارهم في هذه السبيل، وخرجوا إلى البادية وشافهوا الأعراب الأقحاح وأخذوا عنهم اللغة نقية سليمة صحيحة فصيحة، فكانوا حماتها ورعاتها، أثابهم الله، وغفر لهم هنات وقعوا فيها وهم يريدون استنباط الصحيح، واصطفاء الأصح، فانتفع بهم من جاء بعدهم، فجزاهم الله عن العربية وعن الإسلام وعن العرب خير الجزاء، ونفعنا بعلومهم وما تركوا من آثار، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

٩٣ المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص١٦٢.



المراجع والمصادر

١- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد، الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو، تحقيق سعيد الأفغاني، ط٢، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

٢- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، طبعة المعارف، بغداد، العراق، ١٩٥٩م.

٣- ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٤- أسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط٨، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م.

٥- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، شرح وتعليق وضبط لجنة من المختصين، بإشراف مدرار الحبال، ط١، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، لبنان، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

٦- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبي، مؤسسة هنداوي، بريطانيا، ٢٠٢٢م.

٧- الخزرجي، رحيم علي، حقيقة الخلاف في خمس مسائل الإنصاف، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، العدد الواحد والخمسون، ٢٠٠٧م.

٨- السيد، عبد الرحمن، مدرسة البصرة النحوية: نشأتها وتطورها، ط١، دار المعارف بمصر، من دون تاريخ.

٩- السيوطي، جلال الدين، الاقتراح في علم أصول النحو، علق عقليه محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

١٠- العاملي، بهاء الدين محمد بن حسين، كتاب الكشكول، ضبطه وصححه محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١١- الفارابي، أبو نصر، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، ط٢، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.

١٢- بقادر، عبد القادر، مدرسة البصرة ومنهجها في الدراسة اللغوية، مجلة مقاربات، مجلة دولية أدبية علمية ثقافية محكمة، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجلفة، الجزائر، العدد السابع، ٢٠١٤م.

١٣- سدايرية، سمية، ورميدي، هدى، مدرستا البصرة والكوفة في النحو من المعيار إلى الوصف، بحث ماجستير، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة الشيخ العربي التبسي، تبسة، الجزائر، ٢٠١٩ – ٢٠٢٠م.

١٤- ضيف، أحمد شوقي عبد السلام، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ٢٠١٩م.

١٥- محمد، أحمد بابكر حسن، الدلالة النحوية لقراء البصرة، دراسة تحليلية ونحوية وصرفية ولغوية، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه، جامعة أم درمان الإسلامية، الدراسات العليا، معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي، السودان، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

الموسوعات:

١٦- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ.

الطنطاوي، محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط٢، دار المعارف، القاهرة، مصر، بلا تاريخ.

المحيميد، ياسين جاسم، تلحين النحويين للقراء، ط١، مؤسسة الريان، عرمون لبنان، ١٤٢٦هـ.

الحديثي، خديجة، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، مطبوعات جامعة الكويت، ١٣٩٤ه/ - ١٩٧٤م.

